ISSN: 2710-8759/ EISSN: 2992-1376 | 2025/07/15 597-588 ،(02) 06 | مجلة أطراس

خطابُ المعرفة وشَجبُ النّزعة الإنسانيّة عند ميشيل فوكو

Michel Foucault's Discourse of Knowledge and Humanism Critique

عبد العزيز منسي[1]*

[1]جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي، تبسة، الجزائر

تاريخ الاستلام : 2024/05/01 ؛ **تاريخ القبول** : 2025/07/06 ؛ **تاريخ النشر** : 2025/07/15

ملخص

تتناول هذه الورقة البحثية فلسفة ميشيل فوكو بوصفها مشروعًا نقديًّا يُسائل أنماط المعرفة الإنسانية عبر تفكيك الخطابات وتقويض أسس النزعة الإنسانية التقليدية. وتنطلق من تحليل فوكو للمعرفة باعتبارها نتاجًا للسلطة والخطاب، مما يستدعي دراسة آليات إنتاجها ضمن أطر إبستمولوجية محددة. ويحاول الباحث أن يُسلِّط الضوء على نقد فوكو للعقل الغربي الحديث من خلال منهج "الأركيولوجيا"، الذي يكشف عن القطائع المعرفية والتشكيلات الخطابية عبر مفهوم "الإبستيميه". كما يتناول إعادة تعريف فوكو للعقلانية الغربية عبر مساءلة الحدود الفاصلة بين المعرفة الشرعية والخطاب المهمَّش، إضافةً إلى نقده للنزعة الإنسانية باعتبارها أداةً لترسيخ علاقات السلطة بدلًا من تحرير الإنسان، مما يفتح المجال لمساءلة عميقة لمفهومي الذات والعقل في الفكر الحديث.

كلمات مفتاحية :خطاب المعرفة، ميشيل فوكو، نزعة إنسانية، أركيولوجيا، ممارسة خطابية.

Abstract:

This research paper explores Michel Foucault's philosophy as a critical project that interrogates modes of human knowledge by deconstructing discourses and undermining the foundations of traditional humanism. It builds on Foucault's analysis of knowledge as a product of power and discourse, necessitating an examination of the mechanisms of its production within specific epistemological frameworks. The researcher aims to shed light on Foucault's critique of modern Western reason through the method of "archaeology," which uncovers epistemic ruptures and discursive formations via the concept of the "episteme." Additionally, the paper addresses Foucault's redefinition of Western rationality by questioning the boundaries between legitimate knowledge and marginalized discourse, as well as his critique of humanism as a tool for consolidating power relations rather than liberating individuals. This opens the door to a profound reconsideration of the concepts of subjectivity and reason in modern thought.

Keywords: Archaeology, discursive practice, discourse of knowledge, Humanism, Michel Foucault

* Corresponding author's email: abdelaziz.menci@univ-tebessa.dz
DOI: https://doi.org/10.70091/Atras/vol06no02.38

This is an Open Access Article under The CC BY-NC 4.0

مقدمة

شهد الفكر الفلسفي الغربي تحولات جذرية مع أعمال ميشيل فوكو(Michel Foucault) ، الذي تميّز بنهجه النقدي في تحليل المعرفة والسلطة والخطاب، مستخدما منهجه الحفري/الأركيولوجي لفحص بنى الخطاب الإبستمولوجي وتقويض مسلّماته. وانطلق فوكو في تحليلاته من مساءلة أنظمة المعرفة السائدة، متتبعا جذورها وتحولاتها وانقطاعاتها، للكشف عن آليات إنتاجها وعلاقتها بالسلطة. وقد شكّلت أعماله، مثل: (الكلمات والأشياء) و(نظام الخطاب)، مرتكزات أساسية لفهم الإبستيمات التي تحكم تشكّل المعرفة في الحقب التاريخية المختلفة.

وقد حظي هذا الطرح باهتمام واسع في الدراسات الفلسفية والنقدية؛ حيث تناول العديد من الباحثين مثل: إيان هاكينغ (Ian MacDougall Hacking)، وغاري غوتينغ (Gary Gutting)، الأطر الإبستمولوجية الفوكوية، مسلطين الضوء على مفهوم الإبستيمي كمفتاح لفهم التحولات المعرفية. في المقابل، ركز آخرون، مثل: توماس آر فلين(Thomas R. Flynn) وألكسندر نيهاماس(Alexander Nehamas)، على نقد فوكو للنزعة الإنسانية، موضحين كيف فكّك فكرة الذات المستقلة والعقلانية، وربطها ببنى السلطة. وعلى مستوى التطبيقات المعاصرة، امتد تأثير فوكو إلى تحليل الخطابات السياسية والإعلامية، كما في دراسات نورمان فيركلف (Norman Fairclough)، حول تحليل الخطاب النقدي، فضلا عن استكشاف طروحاته في مجالات السياسات الحيوية. أما في السياق العربي، فقد تبنّى مفكرون مثل: (علي حرب)، و(محمد سبيلا)، و(الزواوي بغورة)، (وفتحي التريكي)، أدوات فوكو في نقد العقل العربي وتفكيك الخطابات الدينية والسياسية.

غير أن هذا البحث يتميّز عن الدراسات السابقة بتركيزه على العلاقة بين خطاب المعرفة وشجب النزعة الإنسانية عند فوكو، عبر مقاربة من منظور نقد النقد، وهي مقاربة تتجاوز الأحكام الجاهزة، وتتعامل مع فلسفة فوكو بوصفها أداة تحليلية لإعادة التفكير في أنظمة المعرفة والسلطة. ومن هذا المنطلق، يسعى البحث إلى كشف الأبعاد الإيديولوجية والسياسية لهذا الطرح، بالاستفادة من المستجدات الحديثة في العلوم الإنسانية، مما يجعله جزءا من نقاش نقدي مستمر حول إنتاج الحقيقة والذات في المجتمعات الحديثة.

وتسعى هذه الدراسة إلى فحص إبستيمات خطاب المعرفة الإنسانية عند فوكو أركيولوجيا، بوصفها ثورة معرفية أسهمت في زحزحة العقلانية الغربية، وأسّست فتحًا إبستمولوجيًّا في مجال نقد المعرفة. ومن هنا، تحاول الدراسة الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ما الحفريات؟ وكيف شكلت ملامح الثورة النقدية الفوكوية في تحليل خطاب المعرفة؟
- كيف وظّف فوكو المنهج الحفري/الأركيولوجي في تحليل خطاب المعرفة؟
- كيف أعاد فوكو صياغة إبستيميات الأنظمة المعرفية لبنية العقل الغربي، وشجب عبرها النزعة الإنسانية؟

أولا: الحفريات الفوكوية؛ أي تحليل للخطاب؟

تعد الأركيولوجيا علما قائما يهتم بدراسة الآثار الماضية للحضارات السالفة لتحديد خصائصها الأنثروبولوجية والاجتماعية، وذلك بدراسة الحفريات وتحليلها، وكلمة أركيولوجيا (Archéologie) مشتقة من اللفظ اليوناني المتشكل من مقطعين: أرخيوس (Arklaios) وتعني: القديم، ولوغوس (Logos)، وتعني: العلم، وبالتالي؛ فالأركيولوجيا هي العلم الذي يدرس الآثار القديمة، وقد تطور مفهوم الأركيولوجيا من علم الآثار ليتلاقح مع محمولات معرفية جديدة، تولدت من خلال الطروحات التي جاء بها ميشيل فوكو؛ فقد نقل هذا الأخير الأركيولوجيا من علم الآثار إلى حقل العلوم الإنسانية، وبخاصة

الفلسفة والنقد والإبستمولوجيا، فهو لا يقصد هذا المعنى السابق، بل يرمي إلى دراسة حفريات المجال المعرفي والإبستمولوجيا التي تقف خلف كل عصر، كذا تقصي الأسس الفلسفية والثقافية التي تحكم عملية توليد المعرفة وتأثيرها على الفهم البشري للعالم، فتسعى إلى فهم كيفية تشكيل السياقات الثقافية والاجتماعية الخاصة بالمعرفة وتوجيهها.

إن المنهج الأركيولوجي الذي ابتدعه فوكو –في الحقيقة– استلهمه من (كانط Kant) الذي أشار إلى ضرورة قيام أركيولوجيا للمعرفة الإنسانية؛ حيث أكد أن التنقيب والحفر لا يخص علم الآثار وحده، بل يجب أن يتعداه إلى التراكمات المعرفية التي وصل إليها الإنسان(عبيد يمينة، 2009، ص 44)، وعلى هذا الأساس لا تحاول الأركيولوجيا إيجاد الانتقال المتواصل الذي لا معنى له، والذي يربط بين الخطابات في شكل تصاعدي ويربطها بما سبقها وبما سيلحقها، بل غرضها الأساسي هو الكشف عن خصوصيات الخطاب الإنساني، و"البحث في أصول المعرفة وثوابتها من أجل الوصول إلى بنيتها الحقيقية، ولا يكون ذلك إلا بتعرية الوقائع المخفية والسرية وهذا لا يعني أنها مجرد تكرار للماضي وحفر في القبور، بل هي بعثٌ للحياة فيها من جديد وقراءتها بشكل مغاير ومن عدة أوجه من خلال استنطاق الأرشيف"(فوكو ميشيل، 1987، ص ص 128، 129)، فالأركيولوجيا بذلك لا تحاول تكرار ما قد قيل سلفا بتتبع هويته، بل تحاول إعادة كتابةٍ وتحويلًا مضبوطا لما تمت كتابته سلفا، وذلك لا يعني العودة إلى الأصل مثل الجينيالوجيا، ولكن الأركيولوجيا هي وصف لنظام الخطاب والبحث في تمفصلاته على القطائع التي أوجدته في فترة معينة وأعطته شرعية الهيمنة وشروط الإمكان، كما تسعى الأركيولوجيا التي تبناها فوكو إلى "تحديد أنماط وقواعد الممارسات الخطابية على مختلف أشكالها وعبر مختلف العصور، والتي تسير وتوجه الآثار الفردية، وتحاول الوصول إلى أبعد من ذلك من خلال التحكم الكلي، بحيث تسيطر عليها دون انفلات أيّ عنصر"(ريفال جوديث، 2018، ص 23)، فهي إذن دراسة دقيقة محكمة غايتها تحديد البنى والقواعد الأساسية في الممارسات الخطابية.

وتكمن مشكلة الأركيولوجيا في تحديد خصوصيات الخطابات وإظهار عدم قابليتها للاختزال إلى خطابات أخرى، وإتْباعها من الناحية الخارجية، ولأجل التركيز عليها، فالأركيولوجيا تتقدم ببطء انطلاقا من حقل الرأي غير الواضح إلى خصوصية الانتظام أو إلى الاستقرار النهائي للعلم (عبيد يمينة، 2009، ص 49).

وبناء على ما سبق ذكره؛ يتضح لنا أن مجال بحث الأركيولوجيا هو العلم أو المعرفة ويكون ذلك بالاعتماد أولا على الحفر والتنقيب في خبايا الأرشيف الإنساني وخاصة التاريخ، وثانيا بتحليل هذا الأرشيف بالوقوف على بنياته الحقيقية وأخيرا الحكم عليه انطلاقا من هذه المعطيات، وربطه بالخصائص الإبستيمية السائدة في عصره كمعلم أو أثر، وهي تبحث عما يمكن أن يخفيه الخطاب أو النص وليس ما يظهره لأن العناصر المستترة كثيرا ما تكون جوهر الأشياء (فوكو ميشيل، 1987، ص 130).

وإن دراسة ميشيل فوكو لتاريخ الأفكار في طروحاته الأولى، وبخاصة ما أورده في (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي)، و(مولد العيادة)، و(الكلمات والأشياء)؛ فرضت عليه التأسيس لإطار منهجي ونظري لهذه الطروحات التطبيقية، فأطلق بذلك المنهج الحفري، وجعل الأرشيف كوجود متراكم للخطابات –بمفهوم فوكو لهذا المصطلح– موضوعا للوصف الأركيولوجي، وهذا ما نقله لنا (الطاهر وعزيز) من جواب ميشيل فوكو على سؤال متعلق بتحديد مفهوم الأركيولوجيا كمفهوم جوهري في فلسفته؛ إذ قال: "لقد استعملتُ هذا اللفظ للدلالة على وصف الوثيقة/الأرشيف، ولم أقصد به اكتشاف بداية أو الكشف عن عظام رميمة"(فوكو ميشيل، 1991، ص 128)، وهذا مفاده أن الأركيولوجيا عند فوكو تعني استنطاق الأرشيف

الذي يتضمن خطابا أو خطابات عديدة، وإن هذا الاستنطاق لدى فوكو "لا يتضمن أيَّ محاولة للجري واللهث وراء البدايات... بل يدل على الفكرة الأساسية والمحورية العامة وهي الوصف، فالأركيولوجيا تصف الخطابات كممارسات محددة في عنصر الأرشيف"(فوكو ميشيل، 1987، ص 126)، وهنا تبرز العلاقة التلازمية بين الخطاب كحامل للمعرفة الإنسانية والأركيولوجيا لدى فوكو، والتي استعرضها (الزواوي بغورة) في كتابه (مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو) متوصلا إلى أن التحليل الأركيولوجي للخطابات "ممارسة خطابية لها قواعدها ومبادئها في وصف الخطابات وتشكلها وتحولها وشروط ظهورها وتراكمها وتسلسلها، وأشكال وجودها وانبثاقها أو تلاشيها وضياعها؛ بمعنى أن المجال الأساسي للتحليل الأركيولوجي هو التاريخ، على ألا نفهم من التاريخ ما اعتاد المؤرخون والفلاسفة على تسميته بهذا الاسم؛ لأن لفوكو وجهة نظر خاصة"(بغورة الزواوي،2000، ص 114)، وإذا كان الخطاب يتشكل من مجموعة منطوقات، (الزواوي بغورة) يرى أن تلك المنطوقات هي "الوحدات المركزية للأركيولوجيا"(بغورة الزواوي، 2000، ص 115) ، ونفهم من كل ذلك أن الأرشيف يتكون من تشكيلات خطابية حاملة للمعرفة التاريخية، والأركيولوجيا هي المنهج القادر على استنطاقها، من خلال وصف مآل المعرفة التاريخية، دون البحث في البدايات، وهذا الأخير هو اختصاص الجينالوجيا.

ثانيا: خطاب المعرفة الإنسانية ونقد العقل:

إذا أردنا الحديث عن المعرفة الإنسانية؛ فلابد أننا سنومئ تصريحا أو تضمينا إلى ذلك النتاج الثقافي والاجتماعي للذات البشرية، بما يعكس المفاهيم والقيم والممارسات التي صاغها البشر عبر العصور، وتشمل هذه المعرفة القصص والأساطير والفلسفات والفنون والعلوم والتكنولوجيا والديانات، وغيرها من التعبيرات الثقافية والفكرية التي تميز الذات البشرية، ومن الجدير بالذكر أيضا أن المعرفة الإنسانية بما هي من نتاج عقلي واجتماعي فهي تتأثر بكل أشكال السلطة التي قد تقع تحت وطأتها، ففوكو –بشكل عام– يدرس المعرفة وكيفية تشكلها وتأثير القوى السياسية والاجتماعية عليها، من عدة زوايا قد يكون أبرزها فهم كيفية تغير وتطور مفاهيم المعرفة الإنسانية عبر العصور، وكيفية تشكيلها ونقلها بواسطة السلطة والتأثيرات الاجتماعية والثقافية.

وتعد العلاقة بين المعرفة ونقد العقل علاقة مركزية في فلسفة الفكر، فإذا كانت المعرفة تشير إلى "كل العمليات العقلية عند الفرد، من إدراك وتعلم وتفكير وحكم يصدره الفرد في تفاعله مع عالمه الخاص"(السالم مؤيد سعيد، 2002 ، ص 184)، فنقد العقل يشير إلى التحليل والتقييم النقدي لتلك العمليات الذهنية والمعرفية، فالعملية النقدية تسعى إلى "فهم كيفية اكتساب المعرفة، وتقويم مدى صحتها ودقتها، وتحديد حدود قدرتنا على معرفة الحقيقة"(الغفاري عبد الرسول، 2003، ص 13)، فهي بذلك تُسائل وتُشكك وتستجوب الافتراضات والمعتقدات لتحليلها وفهمها بشكل أفضل، ويعد فوكو واحدا من أبرز الفلاسفة الذين نظروا إلى كيفية تشكل المعرفة وكيفية تأثير النقد العقلي في هذه العملية، فهو –على سبيل المثال– قد اهتم بالنظرية النقدية وكيفية تأثير القوى السياسية والاجتماعية في بناء المعرفة وشكلها.

وتتجلى المعرفة عند فوكو كميدان يتكون من موضوعات واقعة وممكنة الوقوع، وتتجسد في الخطابات المنطوقة وغير المنطوقة، وحتى المتناقضة عبر العصور الزمنية التي عاشها الإنسان انطلاقا من الفترة الإغريقية مرورا بالعصور الوسطى والحديثة وصولا إلى الزمن المعاصر (الكردي محمد علي، دت، ص 20)، فالمعرفة عند فوكو مرتبطة بالبعد التاريخي الذي تتأسس في طبقاته المتراكمة، وتصطبغ بصبغة العصر الذي تبلورت ونشأت أو ظهرت فيه، أو تم تعديلها فيه، ومن هذا المنطلق لا يمكن تمييز معرفة واحدة متناسقة، ففوكو المعروف برفضه لكل أشكال التصنيفات والتمرد على كل

المعارف الإنسانية يرى أن المعرفة مزيج من التناقض واللاتناسق نظرا لاختلاف وتعدد الآراء والأنساق والمذاهب، ناهيك عن النظريات والحمولات الإيديولوجية المؤثرة فيها، لذا يؤكد فوكو أنه لابد من التخلي على الاعتقاد بترابط المعارف والجنوح نحو تبني فكرة القطائع والانفصالات، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه: (حفريات المعرفة) بالقول: "وراء الاتصالات الكبرى للفكر، ووراء التجليات العظمى والمتجانسة لروح أو لعقلية جماعية، وخلف الصيرورة العنيدة لعلم متماسك بأن يوجد وأن يكتمل منذ بدايته، وخلف إصرار جنس من الأجناس الأدبية، أو شكل من الأشكال، وفرع ما من فروع المعرفة، أو نشاط ما من الأنشطة النظرية؛ ينكب البحث حاليا على رصد عواقب الانقطاعات، تلك الانقطاعات التي تتباين تباينا كبيرا فيما يخص طبيعتها وصنفها، مثل: الأفعال والعقبات الإبستمولوجية، والتي تقطع الطريق أمام التراكم اللامحدود للمعارف وتوقف نموها البطيء وتزج بها داخل زمن جديد، وتفصلها عن مصدرها الاختياري ودوافعها الأصلية، فهي بذلك تدفع التحليل التاريخي لا إلى تقصي البدايات الصامتة، بل إلى رصد نمط جديد من المعقولية"(فوكو ميشيل، 1987، ص 06)، فميشيل فوكو يشير –صراحة– في هذا القول إلى أن نظرته إلى المعرفة والعقل الإنساني الذي يولّد تلك المعرفة هي نظرة مغايرة تماما لما كان مألوفا لدى الباحثين والفلاسفة في دراساتهم لتاريخ الأفكار، وكذا نجده هنا أيضا ينفي صفة التراكمية الاستمرارية للمعرفة الإنسانية، مركزا بحوثه وموجها أدواته المنهجية نحو فحص تلك القطائع والانفصالات والبحث عن معقولية جديدة للممارسات الخطابية التي تشكل في مجموعها ما أسماها بـ(الأرشيف).

إن تلك الممارسات الخطابية هي الرحم الحاملة للمعرفة والعاكسة للعقل المشكل لها، ويتجسد تحليل فوكو للخطاب في إبستيمي القطيعة المعرفية بين عصر وآخر؛ لأن المعرفة لا يمكن إدراكها عبر التطور التاريخي، بل يجب أن تُدرك من خلال النسق المتزامن، لذلك يتضح أن لكل عصر مميزاته الخاصة من الناحية المعرفية كبروز وهيمنة علم معين على حساب بقية العلوم الأخرى(عبيد يمينة، 2009، ص 54)، وهكذا تكون المعرفة حصيلةً تتشكل وتتنوع تبعا لأحكام بعض القوانين الفارضة لها، وبذلك يمارس فوكو تحليل الخطاب بـ"الإحاطة بالخطاب في لحظة ميلاده كحدث وكذا انتشاره عبر الأزمنة"(الكردي محمد علي، دت، ص 22).

ومن خلال ما سبق؛ يتضح لنا أن ميشيل فوكو انطلق في ممارسته الخطابية على التشكيلات الخطابية المختلفة ووصفها أركيولوجيا، ثم تحليلها اعتمادا على العقل الذي يرتد في آخر المطاف لنقد أحكامه؛ أي نقد العقل عن طريق العقل، ونقد الممارسة الخطابية بممارسة خطابية تشكل معرفة جديدة.

ثالثا: إبستيمي الحفريات وتحليل الخطاب المعرفي:

سعى فوكو من خلال طروحاته، وبخاصة ما تضمنه كتابه (حفريات المعرفة) إلى إبراز الخصائص التي تميز بها منهجه الحفري الذي جعله كأداة لمساءلة ونقد المعرفة في كل إبستيمي من الإبستيميات التي اقترحها، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإبستيمي أو الإبستيمية هي مصطلح انحدر من الجذر اليوناني (επιστήμη)، الذي يعني: العلم أو المعرفة، أو دراسة نظرية المعرفة، ويعد مصطلح الإبستيمي (Epstémi) مصطلحا حديثا من إنشاء/وضع ميشيل فوكو، واحتل هذا المصطلح مكانة مركزية في التحليلات التي قدمها فوكو في كتابه (الكلمات والأشياء)؛ فقد حدده فوكو بأنه مجموعة علاقات تتحدد كأنماط مختلفة من الخطابات التي تتناسب مع مرحلة تاريخية معينة بالقول: "إنها مختلف الظواهر بين العلوم أو بين مختلف الخطابات العلمية التي تشكل ما أسمّيه إبستيميةَ مرحلة معينة"(ريفال جوديث، 2018، ص 57)، وهو مصطلح يعني مجموع العلاقات التي تميز مرحلة معينة، أو مجموع المقولات الموضوعية التي تحدد الانفتاح على مختلف العلوم والمعارف في

الفترة الزمنية الواحدة، ويقول فوكو في تعريف الإبستيمي: "نقصد منها مجموع العلاقات التي بإمكانها أن توجد في فترة معينة بين الممارسات الخطابية التي تفسح المجال أمام انبثاق أشكال إبستمولوجية وعلوم، وأحيانا منظومات مُصاغة صوريا، إنها النمط الذي يتم حسبه الانتقال داخل كل تشكيلة خطابية إلى التنظير الإبستمولوجي والعلمية والصياغة الصورية، وإنها أيضا نمط يوزع تلك العتبات التي يوافق بعضها البعض أو ينضاف إليه ويبتعد عنه زمنيا"(فوكو ميشيل، 1987، ص 176)، ويقول أيضا: "إنها أيضا مجموع العلاقات التي يمكننا الوقوف عليها في فترة ما بين العلوم حينما نحلل مستوى انتظاماتها الخطابية"(فوكو ميشيل، 1987، ص 176)، ويستعمل فوكو مفهوم الإبستيمي بمعنى قريب من معني البراديغم عند (طوماس كوهن Thomas Kuhn)، فهو يشير إلى أنه ذلك "الإطار الفكري أو النظام المعرفي الخاص بحقبة تاريخية مخصوصة"(سبيلا محمد، الهرموزي نوح، 2007، ص 10)، ولم يتوقف فوكو عن تهذيب مفهوم الإبستيمي إلى أن صار بمعنى "الإنزياح والشرخ القائم بين المسافات، وعلى التعارضات والاختلافات والعلاقات المفترضة بين مختلف الخطابات العلمية"(سبيلا محمد، الهرموزي نوح، 2007، ص 11)، فهو بذلك قد أصبح فضاءً رحبا لتشظي وتفتت وانفتاح المعارف الإنسانية في فترة معينة دون سواها، وبذلك يخرج من دائرة تجزئة التاريخ المشترك للعلوم والحقول المعرفية.

ونفهم من كل ذلك أن الإبستيمي عند فوكو يعبر عن النظام المعرفي والإطار الفكري السائد والمهيمن في حقبة معينة، ويتم استخدامه لوصف الطريقة التي ننظر بها إلى المعرفة ونفهمها في مجتمع معين، وتعتمد فكرة الإبستيمي على اعتبار المعرفة البشرية ظواهرَ تاريخية واجتماعية تتطور مع مرور الزمن، وقد سعى فوكو إلى مساءلة خطابات المعرفة في كل حقبة بالوقوف على خصائص كل حقبة، من خلال تحليل الفكر الإنساني مبرزا السمات المهيمنة، ومن هذا المنطلق يمكن الإقرار بأن الأركيولوجيا تقتات على تاريخ المعرفة، غير أن فوكو ينفي العودة إلى الماضي للوصول إلى شروط تكوين ونشأة المعرفة، ففوكو بذلك لا يبحث عن المعنى أو عن سر تشكلها عبر الأزمنة، فالحفر عند فوكو يكون في حقبة واحدة يقوم بعزلها وفق الإبستيميات الثلاثة التي حددها في كتاب (الكلمات والأشياء) وهي: (إبستيمي عصر النهضة، إبستيمي العصر الكلاسيكي، إبستيمي العصر الحديث)؛ حيث تميزت كل حقبة بهيمنة نظام معرفي معين، فعلى سبيل المثال؛ اعتمد إبستيمي العصور الوسطى على اللاهوت والدين في فهم المعرفة، بينما اعتمد إبستيمي العصور الحديثة على العلوم الطبيعية والطرائق العلمية، فكل إبستيمي يحدد الأسئلة المهمة، وكيفية التحقق من الحقائق والمعرفة في مجتمع معين، وقد حظي مفهوم الإبستيمي بأهمية كبيرة في فهم تطور خطاب المعرفة والقوى التي تتحكم فيه في مجتمع معين، وقد أسهم فوكو بهذا المصطلح في فهم الديناميات الاجتماعية والثقافية وكيفية تأثيرها على إنتاج المعرفة (هوروكس كريس، جفتيك وزوران، 2002، ص 71).

وقد بين فوكو خلال ذلك أن "بنية العقل الغربي لم تتغير بتغير الزمان وحركته، ولم تتفاعل مع الأحداث التاريخية المركزية"(عبيد يمينة، 2009، ص 58)، ويعبّر فوكو عن ذلك بالاكتشاف الأركيولوجي، وبأن المعرفة قد اكتست بُعدا جديدا بعدم انحصارها في مراجعة وتعديل المعلومات والعلوم، بل اختصت بتنظيمٍ معين للخطابات المعرفية في حقبة تاريخية معينة عن طريق اللغة، ومن هنا تتجلى أسس العلوم والمعارف في خضم البنيات/الأنساق التي تشكلت فيها، وهذا ما قد عنى عند (العايب ربيع) أن فوكو "قد اجتهد في تحديد الوقائع الخطابية وحاول تحريرها من كل تفسير أنثروبولوجي وإيديولوجي أو حتى سيكولوجي؛ أي إنه حاول وضع أسس فلسفية جديدة لا تُعنى بالوجود أو الفكر، بل مِحورها الأساسي التساؤل عن اللغة ووحدتها الضائعة من خلال تحليل الممارسات الخطابية وتوضيح بنيات اللغة"(العايب ربيع، 2023، ص 189)، وقد لقيت

هذه الأفكار أصداء في الحقل النقدي والفلسفي كونها كشفت عن البنى المعرفية وأبرزت طبيعة المعرفة وحددت علاقاتها خاصة بالسلطة والمنهج.

وفي هذا السياق؛ يمكن الاعتراف أن الحفر الأركيولوجي عن المعرفة في الحقب التاريخية هو ما جعل فوكو يميز بين ثلاثة أنظمة معرفية متعاقبة، تحددت في إبستيمية التشابه التي سادت في عصر النهضة، وإبستيمية النظام التي هيمنت في العصر الكلاسيكي، وإبستيمية التاريخ والإنسان التي تميز بها العصر الحديث، وما هذا التمييز إلا نتاج تباين البنى المعرفية والعقلية فيها، وأدى هذا التقسيم الثلاثي الذي توصل إليه فوكو به إلى محاولة تحديد العلوم السائدة في كل عصر، وتوضيح بنيات هذه الحقب التاريخية؛ حيث شرّح الفكر ووضح حقائقه، وفي هذا كله لم يُقصِ اللغة من التحليل في كل حقبة زمنية؛ إذ إن فوكو قد وضّح –تبعا لذلك– دور البنيات اللغوية الناظمة للتشكيلات الخطابية وخصائصها في كل حقبة وتأثيرها وسلطتها على المعرفة، من خلال كشف وتعرية العلاقات المختلفة والمتعددة التي تتجمع فيها، وفي ذلك يقول فوكو: "يتضح أنه خلف ممارستنا التي نعتقد أنها تنبع من الحرية، وخلف الخطابات، ووراء الأعراف والعادات، والمؤسسات وأشكال الثقافة نوع من النظام الخفي الذي يعمل في المستوى العميق كبنية تسيّر وتسيطر على كل هذه المظاهر"(فوكو ميشيل، 1987، ص 179)، وإن معرفة هذه البنيات المتحكمة في نظام معين تعني –بالضرورة– معرفة الإبستيمية التي أبدعها فوكو وكرسها في تحليلاته الأركيولوجية للمعرفة الإنسانية مؤكدا أنه "ليس هناك في ثقافة معينة، وفي فترة تاريخية محدودة سوى إبستيمية واحدة هي التي تحدد شروط الإمكان بالنسبة لكل معرفة، سواء تلك التي تظهر في نظرية ما أو تلك التي تستثمر بصمت في الممارسة"(عبيد يمينة، 2009، ص 68)، وفي مقابل ذلك؛ أكّد فوكو بأنه أول من أشار إلى وجود علاقات إبستمولوجية في الحقب الزمنية، معتمدا على حجج وبراهين مستمدة من العصور نفسها، كما أنه وضّح درجة الترابط بين مختلف الأشكال والأنماط المعرفية في عصر معين في قوله بأنه "أول من برهن على وجود ترابط إبستمولوجي عميق بين مختلف أنواع المعارف السائدة في فترة زمنية معطاة وفي عصر معين"(صالح هاشم، 1984، ص 13).

ويمكن أن نحدد بعض معالم الممارسات التطبيقية في الفلسفة النقدية لميشيل فوكو؛ فهو يعتمد على المنهج الحفري/الأركيولوجي في البحث والتنقيب من أجل نقد المعارف، كما أنه يؤمن بوجود إبستيمية واحدة تسيطر على عصر معين، وتصبغ هذا العصر بلون معين من المعارف، وفي نقده لا يُقصي أبدا الممارسات الخطابية واللغة ككل؛ أي إن منهج فوكو في الحقيقة هو منهج نقدي يهدف إلى توضيح بنيات المعارف والممارسات الخطابية وله بعد تأويلي تفسيري للحقائق.

خاتمة:

ختامًا، يكشف تحليل ميشيل فوكو للمعرفة عن تشابكها العميق مع علاقات السلطة، مؤكدًا أنها ليست مجرد تراكم للحقائق، بل شبكة معقدة من الخطابات والممارسات التي تحدد ما يمكن أن يُقال ويُعترف به كحقيقة في سياقات تاريخية محددة، ومن هذا المنطلق؛ يمثل مشروع فوكو الفلسفي قطيعة إبستمولوجية مع التصورات التقليدية التي كانت ترى المعرفة ككيان موضوعي مستقل؛ إذ يظهر أن إنتاج الحقيقة ليس عملية محايدة، بل ممارسة خاضعة لشروط تاريخية تحكمها علاقات القوة.

لقد قدم فوكو منهجيات تحليلية رائدة، مثل الأركيولوجيا والجينالوجيا، لتفكيك أنظمة المعرفة والتفكير السائدة، وتوضيح كيفية عدم قيام الخطابات على استمرارية تاريخية خطية، بل على قطائع وانفصالات، تعيد تشكيلها وفق تحولات القوى المهيمنة، فالأركيولوجيا –باعتبارها ممارسة خطابية تحليلية– لا تهدف إلى البحث عن أصول الخطابات أو صدقها،

بل تسعى إلى الكشف عن الشروط التي سمحت بظهور تشكيلات معرفية معينة وإقصاء أخرى، مما مكّنه من فضح الأسس الميتافيزيقية التي ارتكزت عليها مفاهيم الحقيقة المطلقة والعقلانية الترنسندنتالية في الفكر الغربي.

الحفريات الفوكوية ممارسة خطابية لا تتقصى البدايات ولا لحظة التشكل، ولا تبحث في صدق الخطابات ولا معقوليتها، ولا تنظر إلى نظام اللغة والقواعد الشكلية، ولا تهتم بمظاهر الصعود؛ إنما تنسف استمرارية الخطابات، وتنبذها عن طريق إثبات القطائع والانفصالات، والحفر في شروط الإمكان، وتحديد الشروط التي أتاحت لتشكيلات خطابية معينة شرعية الوجود والهيمنة في فترة بعينها ومنعت أخرى من الظهور، ذلك ما يجعل من الأركيولوجيا منهجًا مغايرا لبقية المناهج السابقة أو والمعاصرة له، بجنوحها نحو إلغاء الذاتية وشجب النزعة الإنسانية السائدة بزحزحة قداستها، والابتعاد عن النسقية، من خلال البحث في الميتافيزيقا، واستناد التنقيب عن المعرفة إلى البحث في الخطاب كوثيقة حاملة للبناء المعرفي، أو ما يطلق عليه فوكو تسمية (الأرشيف)، قصد تجاوز مأزق المناهج الكلاسيكية التي كانت تمجد المبدع أو شخصية المؤلف، وتبتعد عن شرط العلمية، فوقعت في باثولوجيا الإسقاطات المنهاجية وأعطاب التأويلات المتحجرة.

وفي هذا السياق، لعب شجب فوكو للنزعة الإنسانية دورًا حاسمًا في إعادة تشكيل الفكر النقدي؛ فقد رفض التصورات التقليدية التي جعلت من الإنسان محورًا للمعرفة، وذاتًا متعالية قادرة على فهم العالم وفق مبادئ عقلانية ثابتة، وبدلا من ذلك؛ كشف عن أن مفهوم الإنسان نفسه ليس إلا نتاجا تاريخيا وخطابيا مشروطا، مما أدى إلى زعزعة العديد من المسلّمات الفلسفية التي كانت تحكم الفكر الحديث، وهذا النقد الجذري مهد لانبثاق فتوحات جديدة للجدال الفلسفي وآفاق بينية تتجاوز المكان والزمان للنقاش النقدي؛ إذ لم يعد يُنظر إلى الإنسان بوصفه ذاتًا مستقلة متعالية، بل كنتاج لأنظمة خطابية تشكّله وتحدّد أنماط تفكيره وسلوكه.

علاوة على ذلك، لم يكن فوكو مهتمًا بتحليل المعرفة في بعدها الأكاديمي المحض، بل سعى إلى مساءلة مختلف أنماط الخطاب التي تؤثر في تشكيل الأفراد والمجتمعات، متجاوزًا بذلك الفهم التقليدي للسلطة كقوة قمعية إلى رؤيتها كبنية موزعة ومتغلغلة في كل الممارسات الخطابية والاجتماعية، وهذا يجعل من قراءته اليوم أداة نقدية قوية لفهم التحولات الراهنة، سواء في العلوم الإنسانية أو في الخطابات المعاصرة حول الهوية، السلطة.

وبناءً على ما تم التوصل إليه، يمكن توجيه البحوث المستقبلية نحو تطبيق المنهج الفوكوي على مجالات معرفية جديدة مثل الذكاء الاصطناعي والإعلام الرقمي، واستكشاف مدى تفاعل أفكاره مع تطورات النظرية النقدية والدراسات ما بعد الكولونيالية، كما أن تحليل الخطابات السياسية والاجتماعية الراهنة من منظور فوكوي يتيح إمكانية إعادة التفكير في مفاهيم الحياد والموضوعية في المعرفة، وبذلك، يظل مشروعه الفلسفي مصدرًا متجددًا للنقاش والجدال النقدي، إذ لم تتوقف تأثيراته عند عصره، بل استمرت في تحفيز الفكر الفلسفي على مساءلة البديهيات والنزعات المهيمنة، والتشكيك في أنظمة الفكر التي تشكل وعينا المعرفي حتى اليوم.

لمحة حول الكاتب:

عبد العزيز منسي طالب دكتوراه في جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي – تبسة (الجزائر). تتناول أطروحته خطاب المفاهيم في المشروع النقدي للباحث الزواوي بغورة، من خلال دراسة حفرية تأويلية. له مؤلف علمي حول باثولوجيا الهجائن المستوردة وشظايا التوطين البراديغمي في الخطاب الميتانقدي العربي المعاصر. شارك كمتحدث ومنظم في مؤتمرات دولية ووطنية وندوات تكوينية وعلمية. تشمل اهتماماته البحثية مجال الأدب والدراسات النقدية، مثل: الدراسات الأدبية والفكرية، والفلسفة النقدية المعاصرة، والدراسات النقدية، وتحليل الخطابات الأدبية والنقدية، والنقد الأدبي، والدراسات الثقافية، والنقد وما وراء النقد، والدراسات التربوية، وتقنيات التعليم. نشر عشر مقالات محكمة في مجلات علمية محكمة دولية ووطنية مثل زيغلوبيثا، وأبوليوس، وزاولي، وأفجوليه... وهو مشارك فاعل في الحياة التعليمية للمجتمع كأستاذ قسم أول في اللغة العربية للمرحلة المتوسطة.

حساب الأوركيد: https://orcid.org/0000-0002-6825-1370

التمويل: هذا البحث غير ممول

شكر وتقدير: الشكر لرئيسة التحرير ولكل القائمين على المجلة.

تضارب المصالح: يُعلن المؤلف عدم وجود تضارب في المصالح.

الأصالة: هذا البحث عمل أصلي

بيان الذكاء الاصطناعي: لم يتم استخدام الذكاء الاصطناعي أو التقنيات المدعومة بالذكاء الاصطناعي.

المراجع

بغورة الزواوي، (2000). مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

ريفال جوديث، (2018). معجم ميشيل فوكو، (بغورة الزاوي، مترجم). لبنان: دار سؤال.

السالم مؤيد سعيد، (2002). تنظيم المنظمات دراسة في تطوير الفكر خلال مئة عام، عَمّان: دار الكتاب الحديث.

سبيلا محمد والهرموزي نوح، (2007). موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة، ميلانو: منشورات المتوسط.

صالح هاشم، (1984). فيلسوف القاعة الثامنة. مجلة الكرمل، فلسطين: مؤسسة الكرمل الثقافية، العدد 12، ص.ص (9-50).

العايب ربيع، (2023). "ميشال فوكو؛ ما الإبستيمي؟". مجلة الحقيقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، (وعزيز الطاهر، مترجم)، الجزائر: جامعة أدرار، المجلد 22، العدد 02، ص.ص (183- 200).

عبيد يمينة، (2009). الثورة النقدية عند ميشال فوكو. رسالة دكتوراه غير منشورة، في المنطق وفلسفة العلوم، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر.

الغفاري عبد الرسول،(2003). النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.

فوكو ميشيل، (1987). حفريات المعرفة، (يفوت سالم، مترجم). ط2. المغرب: المركز الثقافي العربي.

فوكو ميشيل، (1991). "مفهوم الأركيولوجيا"، مجلة المناظرة، (وعزيز الطاهر، مترجم)، الرباط: مؤسسة المعاهد، السنة 02، العدد 02، ص.ص (128- 128).

الكردي محمد علي،(دت). نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

هوروكس كريس وجفتيك وزوران، (2002). أقدم لك فوكو، (عبد الفتاح إمام، مترجم). القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

الاستشهاد بالمقال

منسي، عبد العزيز.(2025) . خطابُ المعرفة وشَجبُ النّزعة الإنسانيّة عند ميشيل فوكو. *مجلة أطراس*، *6*(2)، 588-597